سعيد صبحي الصفاني

انطلقت الاصوات تعوى كصفير قطار والكتل السوداء تميل في كل اتجاه · وتطوح بالايدى يمينا وشمالا · بينما لمعت الوجوه بانهـــا الدموع التى كانت تحفر طريقهـــا فوق الخدود المحمرة من اللطم والبكاء ·

وصحا (سيد) من نومه فزعا · ينظر حوله مذعورا · وقلبه يدق فى عنف · ماذا حدث ؟ ·· لا شيء · أبوه مات !!·

وهذا هو اليوم الثانى بعد وفاته · ولم تهدأ النار في البيت بعد · ولاينتظر أن تخبو جذوتها أو تخمد · وان خمدت فبعد أن تترك آثارا رهيبة ·

وفرك (سيد) عينيه فى بطء · وقام من السرير النحاسى متخـــاذلا ، وألقى بنفسه فوق الكنبة المتداعية ، وما زالت آثار النعاس عالقة بأجفانه ·

لقد تام كالقتيل بعد ليلة مرعبة · بدأت بتشييع الجنازة · وانتهت مـع انصراف آخر المعزين الذين تجمعوا فى المســـاء فى صالة البيت · يســمعون القرآن ، ويرشفون القهوة ، ويترحمون على أبيه ·

وأبوه موظف بسيط · كان يعمل فى وزارة الصحة بالابتدائية القديمة· ورغم ضآلة مرتبه · اســـتطاع أن يوفر لهم حياة مستورة تكفيهم مذلة سؤال اللئيم والكريم على السواء ·

وها هو الموت يخطفه من بينهم فجأة· تاركا وراءه أسرة صغيرة ، وادعة لاتدرى من أمر نفسها شيئا ·

وأمه المسكينة · لقد أنهكها الحزن بين يوم وليلة · وأحال شبابها الى حفر وتجاعيد تملأ صفحة وجهها المكروب ·

كم كان يشعر بالحرج أمس ·· وهو يحس بالمعزين من الرجال والنســاء · يسلطون عليه أنظارهم · ويرقبونه فى كل خطوة · ومصمصات الشفاه تطقطق فى أذنيه ·

ان بعض قريباته من النساء لم يكتفين بهذا · فاحتضنه وقبلنه فى وجنتيه ، ودموعهن تغرق وجهه وتشعره بالبلل ·

كيف استحضرن كل هذه الكمية من الدموع الى مآقيهن ؟ ·

ومن أين لهن بتلك القدرة على البكاء المتواصل دون تعب ؟ ·

واين كان هؤلاء جميعا قبل أن يموت والده ؟ ·

لم يكن يعرف أن عائلة أبيه بمثل هذا الكبر الا أمس ··

صحيح انه سمع والده يتحدث عنها كثيرا ·· لكنه لم يتحدث عن كل هذا العدد ·· عدد ضخم من الرجال والنساء · كانوا يعزونه في والده وكل منهم يذكر له أنه قريبه ·· ولا يدري كيف ·

وجاءت عليه لحظة من لحظات الامس·· شعر فيها بالخجل من نفسه · فقد خالجه شعور بالارتياح ـ رغم حرجه ـ لاهتمام كل هؤلاء الناس به ، واستقطابه لكل هذا العطف بغض النظر عن زيفه أو صدقه ·

ونهض (سيد) يجرجر قدميه ، وذهب ليغتسل والعواء يملأ عليه البيت كآبة وحزنا ·

وعندما عاد · ارتدى ملابسه على مهل · وغادر البيت في سكون ، وسار في الطريق ، يتفحص وجوه الناس ، وهو يشعر بأنه عاد الى عالمه القديم · عالم ما قبل وفاة والده ·

الناس يسيرون · وجوههم خالية من أى تعبير وعم (حسين) البقال جالس أمام دكانه يضحك بمناسبة وبلا مناسبة ليستعرض أسنانه الذهبية · و (حامد) صاحب محل الخردوات · منهمك في مغازلة (فهيمه) الخياطة ، ويتبادل النكات البذيئة معها ·

لا أثر لمأساة · لا أحد يحس بمشكلته وكلهم يعيشون حياتهم ·· حياة كل يوم، بلا أدنى تغيير · لايعكرها الا مأساة كمأساته · لكن الى حين ·

هذه هي سنة الحياة · فهو أيضا سيتخلص من الاحساس بمأساته هذه بعد حين · ليعيش في مأساة جديدة · قد تكون مرتبطة بمأساته الحالية، لكنها تختلف عنها ·

هو الآن مهدد بالفصل من المدرسة ـ أو على الاصح ـ مهدد بترك الدراسة طواعية ، والتخلي عن جميع أحلامه التي راودته ··

الجامعة ·· الهندسة ·· العمل الكبير · وعن المستقبل · كل هذا سيتخلى عنه الآن · فليس من المعقول ان يستمر في الدراسة وقد أصبح العائل الوحيد لاسرته · ومعاش أبيه لن يكفيهم ولن يحصلوا عليه الا بشق الانفس · وموت يا حمار !!

هو لا يدري ما الذي يمكن أن يعمله بعد أن يترك الدراسة · فهو من الصف الثاني الثانوي · ولم يحصل الا على الاعدادية وهي ـ كما يعرف ـ لاتوفر لصاحبها عملا بالمعنى المفهوم · فضلا عن صغر سنه الذي يعتبر في حد ذاته مشكلة ·

ولكن ·· هل قدر له أن يواجه كل شيء بمفرده ؟! ان هذا هو ما يخشاه ويخافه ·

لقد رأى زملاء له في الحارة · يصبحون رجالا قبل الاوان ·· وتنحني أعوادهم الخضراء تحت أكوام المسئولية المبكرة ·· كان بعضهم ينقصف ·

والبعض الآخر كتب عليه أن يعيش محنيا باقي حياته .

هل جاء دوره ليصبح رجلا في السادسة عشرة . يحمل مسئولية نفسه وعائلته ؟

انه في موقف أكبر منه .. وامكانياته وتجاربه الضئيلة أعجز من أن تقدم له شيئا .

وكل هؤلاء الاقارب من الرجال والنساء . سيفرون عند الجد . عندما تنتهي صدمة الحزن المؤقتة ويتلاشى الانفعال الزائف ويتبخر . هو يعرف هذا تمام المعرفة . فقد رآه من خلال مآسي أصدقاء الحارة الذين ابتلوا بمثل ما ابتلي به .

رآهم يواجهون العاصفة بمفردهم . حيارى .. لايدرون أي طريق يسلكون . يمدون أيديهم الى فراغ . ولا يرون الا ضباب يخفي عنهم كوارث المستقبل . وان كانوا يدركونها بأحاسيسهم التي شحذتها الصدمة . هل قدر له أن يقف مثل هذا الموقف ؟ . وهل يحتمل هذه الصدمة ؟.. شيء محير . والعجيب أن التفكير فيه يزيده حيرة شديدة ومفاجئة . لقد أصبح بالامس فقط . معقد آمال الاسرة بعد أن ذهب عائلها الاكبر . وعليه تتوقف حياة هذه الانفس المعذبة . التي هدتها الفجيعة .

لم يترك أبوه شيئا . ولا حتى ثمن الكفن . ولولا سوار ذهبي كان في يد أمه . ورث ثمنه في غفلة من الزمن . لما قدر لوالده أن يدفن أو يلمس جسده كفن . والجنيهات القليلة التي تبقت من ثمن السوار .. ذهبت أشتاتا ، وذهبت في لوازم الموت . وكان الدنيا تأبى الا أن تجردهم من كل شيء حتى يقفوا أمامها عزل من كل احتمالات المقاومة .. موت وخراب ديار .

وتذكر (حسن) و (عبد العزيز) وزملاءه في المدرسة . لقد دخلوا جميعا القسم العلمي .. ليلتحقوا بعد ذلك بكلية الهندسة سويا .. هكذا كانوا يأملون . وعلى ذلك صمموا . وها هو الآن مضطر

الى التخلف . امامه ظروف غير طبيعية تسد عليه الطريق . وتقف حائلا بينه وبين احلامه . واصبح مقدرا له ان يعيش مرة اخرى محنيا . هذا ان لم يتيبس وينقصف قبل الاوان . واحس بالثورة الثورة على كل شيء .. على الفقر .. على القدر وسوء الحظ . لماذا يموت ابوه الطيب الفقير ؟ .. وتموت معه احلامه وآماله . ولماذا ابوه بالذات ؟ . الم يكن في وسع القدر ان ينتظر .. ينتظر ولو قليلا ..

وماذا يفيد كل هذا الآن . لقد وقع الامر . وعليه أن يكيف نفسه ويهيئها للظروف الجديدة التي أحاطت به دون ان يكون له دخل في ذلك .

وتعب من المشي . واحس برغبة ملحة في الجلوس .. أن يفترش الارض ويريح أقدامه المتعبة .

لقد سار بالامس كثيرا .. دار على بيوت الاقارب يحمل اليهم نبأ وفاة والده .. لكم كانت كريهة هذه المهمة البغيضة . لقد شاهد ألوانا من النفاق والحزن الملفق لم يكن يتوقع أن يراها . ومع ذلك فقد كان عليه أن يستمر في هذه المهمة حتى النهاية .. وبعدها .. جرى الى الحانوتي . ثم سار في الجنازة . يحوطه المشيعون . يطيبون خاطره ، ويواسونه في مصابه الاليم .

كان يعلم أنهم لا يتكلمون الصدق . هي فقط تادية واجب تمرسوا عليها وخبروها أما مأساته . فلم تكن تهمهم من شيء . انها مأساته هو فقط ، ولا تخص أحدا سواه ، وعليه أن يواجهها بمفرده دون أن يعتمد على أقرب الاقارب فكلهم منافقون . يسرفون في الكلام .. الكلام فقط .. أما اى شيء آخر فهم لا يعبأون به .. ولا يهمهم .. حتى ولو كان عذاب أسرة وشقاء رجل صغير . يواجه العاصفة . أعزل من كل مساعدة ..

واستدار عائدا الى البيت .. فلم يكن يعرف أين يذهب ..

كان الوقت ظهرا . والشمس تطل من بين السحب البيضاء لتعود وتختفي وراءها . وشعر بالارهاق والتعب . واحس برجليه تعجزان عن حمله . فسار الى البيت وهو لا يدري ان كانت قدماه تتحركان أم ان الارض هي التي تسير به .

ودخل شقتهم الصغيرة . فوجد أمه متكومة على حصير في احدى الغرف التي اخليت لاستقبال المعزيات . وقد راحت في ما يشبه الغيبوبة . وبجانبها احدى الجارات العجائز . متكئة على الحائط في وهن وقد اسبلت أجفانها .

أما أخته الصغرى . فجلست ورأسها مرفوع . وعينيها تحدق في الفراغ . والذهول يشكل تقاطيع وجهها الطاهر البريء . وكان عقلها ما زال عاجزا عن استيعاب ما حدث .

لقد مات ابونا ياجمالات . وعلينا من اليوم أن نعد أنفسنا لحياة جديدة . قد لا تعرفين ماهي .. ولكنني أعرف . وهذا ما يعذبني ..

ودون أن يحس به أحد .. اتجه الى غرفة النوم ، وخلع ملابسه في هدوء . وألقى بنفسه على الفراش وهو يتنهد بعمق .. ولم يلبث أن راح في سبات عميق